**العلاقات الروسية في المشرق العربي**

**مقدمة:**

نحن ننظر الى روسيا دائماً بشيء من الاعجاب والتقدير، ذلك لأنها منذ اطلالتها على العالم وهي عالمية كونية شمولية في فكرها، وفي أدبها وفي روحها. فالروسي ينظر الى الفقير في موسكو ويتكلّم عن الفقير في العالم؛ يدرس مشكلة داخلية ويربطها بمشاكل الانسانية جمعاء. هذه عالمية نابعة من حس روحي عميق، ومن حس بوحدة الانسانية.

الايمان الارثوذكسي يطل علينا من موسكو... العاصمة الوحيدة في العالم التي يمكن ان تسمّى عاصمة الكنائس والاجراس والايقونات. من جهتهم عرف مسيحيو الشرق ارثوذكسية روسيا العالمية وتعاونوا معها وتعلموا منها وقدروا اهتمامها الروحي والسياسي في مصير هذه المنطقة.

هناك اهتمامات تحتل أولويات في تفكيرنا وتستدعي الحوار المسؤول مع روسيا.

1. يهمنا بقاء المسيحيين العرب في عزتهم وكرامتهم في المشرق كمواطنين احرار.
2. يهمنا بقاء الوجود المسيحي في مدينة القدس.
3. يهمنا الأخاء والتعاون والحياة الواحدة مع المسلمين العرب.
4. يهمنا وجود روسيا الجديدة معنا في هذه المرحلة الدقيققة من تاريخ هذه المنطقة.
5. يهمنا ان نسمع في المحافل الدولية اصواتاً تختلف، ولو قليلاً عن المصالح النفطية، والطرق الاستراتيجية، والتفوقٌ النوعي لدولة على دول أخرى.

**روسيا والأرض المقدسة:**

* إن مرحلة جديدة في تاريخ علاقات روسيا بالارض المقدسة بدأت مع استيلاء الفرنجة (الصليبيين) على القدس في 15 تموز 1099.
* إن كل ما ذكر في المدونات الروسية عن القدس وفلسطين وسوريا في القرن الحادي عشر ينحصر في المذكرات الادبية.
* تعتبر القدس الرمز الديني المقدس في الوعي الديني الروسي. في القدس، بالنسبة للروسي، يتعانق الأزلي مع الزمن؛ أو كما عرفها الأديب اللبناني الياس خوري: انها، أي القدس، "مكان لقاء الابدية بالتاريخ". حتى ان قيصر روسيا، وبعد انهيار القسطنطينية في عام 1453، نظر الى موسكو كأيقونة لقدس جديدة. وبقيت تلك الصورة لموسكو مترافقة ومتلاحمة مع صورة القدس الاصلية. وفي الايقونة الروسية، تجسد القدس المعبد السماوي الذي يحضن كل اسرار المؤمن وطموحاته نحو الخلاص.
* لقد حظي تأسيس البطريركية الروسية في العام 1589 بدعم بطريركيات الشرق القديمة لهدف عملي، وهو اكتساب حليف قوي للأرثوذكسيية في الشرق بشخص الدولة الموسكوبية المتنامية.
* شكلّت اربعينيات القرن التاسع عشر سنوات حاسمة بالنسبة لتبلور النظام الحديث للعلاقات الكنسية الروسية- القسطنطينية. ففي تلك الحقبة أخذت الدول الغربية العظمى تتطلّع بالحاح أكثر الى القدس والشرق الأدنى مموهة اطماعها تحت قناع المصالح الدينية. وعليه، ففي شباط لعام 1849 وصلت الى القدس أول هيئة للبعثة الروسية في القدس. وكان من مهمات البعثة المساعدة في تدبير شؤون الحجاج الروس.
* في عام 1852 انفجر الصراع بين السلطات التركية وروسيا لأن اسطنبول، واسترضاء للرغبات الفرنسية، قامت بتسليم مفاتيح كنيسة مهد المسيح في بيت لحم التي كانت تقليديا بيد الاثوذكس الى الكاثوليك.

**المدارس الروسية:**

ان ما حفظته ذاكرة الناس عن هذه المدارس يتلخّص في ثلاثة امور:

1. ان هذه المدارس تميّزت عن غيرها من مدارس الارساليات الاجنبية بأنها بذلت عناية خاصة لتعليم العربية.
2. اعطت هذه المدارس أهمية قصوى للتعليم الديني.
3. كرّست هذه المدارس جهودها للفئات الفقيرة. فكانت بالاضافة الى انها لا تتقاضى اقساطاً، تقدم الملابس الرسمية والكتب والدفاتر والاقلام مجاناً الى التلاميذ.

افتتحت المدرسة الاولى على الاراضي اللبنانية في مدينة بيروت من قبل القنصل الروسي العام، قسطنطين بينكوفتش، وكان ذلك في 22 ايلول 1887. اما العدد الاجمالي لمدارس الجمعية الارثوذكسية الفلسطينية في لبنان فبلغ حتى نشوء الحرب العالمية الاولى 42 مدرسة. ومن المهم الاشارة الى ان المدارس الموسكوبية كانت تستقبل طلاباً من كل الطوائف اللبنانية.

**السياسات إزاء الدولة العثمانية: نظرة تاريخية**

على مدى قرون عدّة تضافرت عوامل دينية وسياسية واقتصادية واستراتيجية وايديولوجية كانت تدفع روسيا لتجزئة الدولة العثمانية والاستحواز على عاصمتها وممراتها، تارة بأسلوب التوسع العسكري وتارة أخرى من خلال تفاهم دولي. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف اعلنت روسيا انها الوريث "الشرعي" للأمبراطورية البيزنطية والحامية العالمية والمدافعة عن العقيدة الأرثوذكسية. وقامت وبناء على ذلك بإدعاء زعامة العالم الارثوذكسي الخاضع للسلطة العثمانية وتسخيره لهذا الهدف مستخدمة في ذلك ما سمي بالجامعة الارثوذكسية، التي كانت العقيدة المشتركة التي بنت عليها تضامنها مع الارثوذكس من رعايا السلطان العثماني في البلقان حتى بلاد الشام دون اعتبار للعرق او الثقافة.

وخلال القرن الأول من الصراع بينها ويبن الدولة العثمانية تمكنت روسيا من تحقيق نصف برنامجها التوسعي على حساب السلطنة. فبطرس الأكبر (1682-1725) هو الذي قاد "الزحف نحو الجنوب" (الساحل الشمالي للبحر)، فيما تمكنّت الامبراطورة كاترين الثانية (1762-1796) من جعل هذا البحر "بحيرة روسية"، وأمنت بالتالي لسفنها التجارية عبور الممرات الى المتوسط، فضلاً عن ادعاء حماية رعايا السلطان العثماني من الارثوذكس، طبقاً لتفسيرها لمعاهدة "كوتشك قينارجة" الموقعة معه في عام 1774.

بقي مبدأ الجامعة الارثوذكسيية مطروحاً في سياسة روسيا الخارجية حتى نهاية القرن التاسع عشر. ومنذ ان بدأت روسيا تحاول ان تنشر "رسالتها" هذه، أي منذ مطلع القرن السابع عشر، بعد ان شعرت بتوفر القوة الكافية لديها لحمل تلك الرسالة، أخذت شعوب السلطنة من الأرثوذكس تتطلّع الى قياصرة روسيا على انهم حماتها الطبيعيين ضد الهيمنة الاسلامية المتمثلة بالدولة العثمانية. ولم تتأخّر هذه عن طلب المساعدة من القياصرة الروس "حماة العقيدة"، الذين اصبحوا في نظرها "القياصرة الارثوذكسيين".

وفي عام 1711 وضع الجبل الأسود نفسه تحت الحماية الروسية.

إن نتائج سياسة روسيا الدينية يمكن قراءتها بوضوح في معاهدة كوتشك قينارجة (1774)، حين حصلت تلك الدولة على حق تشييد كنيسة لها في الآستانة تكون ورجال الدين القيّمين عليها تحت حماية الوزير الروسي المفوض في العاصمة العثمانية، الذي أجيز له التدخّل في أية مناسبة لدى السلطات العثمانية بالنيابة عن تلك الكنيسة ورهبانها. كما سمح الباب العالي للرعايا الروس من رجال الدين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين دون عائق. ولقد أدى الخلاف على تفسير المعاهدة (البنود 7،8 و14) بشأن حماية روسيا لرعايا السلطان من الارثوذكس واعتبار القيصر نفسه المرجع الاول والاخير في هذه المسألة، مقابل رفض عثماني، استناداً الى مفهوم السيادة، الى ازمات متواصلة بين روسيا والدولة العثمانية. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر واستناداً الى معاهدة قينارجة، أخذت روسيا تطبق حمايتها على الارثوذكس تارة بأسلوب الضغط العسكري وطوراً بأسلوب الضغط الدبلوماسيي وتعمل على توطيد علاقاتها بالكنائس الارثوذكسية في المشرق.

ومن خلال استغلالها للوضع الديني- السياسي الناشىء عن معاهدة قينارجة، وضعت روسيا اهدافها السياسية في القرن التاسع عشر والتي اتجهت اساساً للتدخّل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية وانهاكها وتجزئتها. فازداد تدخلها في سوريا وفلسطين لتحقيق حلمها في سيادة الارثوذكسية هناك.

وبرفض الباب العالي مطالبها، بدأت روسيا عمليات عسكرية في البلقان واحتلت جيوشها الولايتين الدانوبيتين، مما أدى بعد قليل الى اندلاع حرب القرم. وكانت بريطانيا وفرنسا اللتان دخلتا الحرب الى جانب السلطنة العثمانية تريان وبمساندة نمساوية بأنه "لا يحق لأية دولة حماية رعايا السلطان". ومن الواضح ان هذا الموقف كان موجهاً ضد روسيا وسياستها في الدولة العثمانية. وقد أدت هزيمة روسيا في تلك الحرب وتوقيعها على معاهدة باريس عام 1856 الى انهاء وصايتها المطلقة على الرعايا الارثوذكس في الدولة العثمانية، وبشكل خاص فيما يتعلّق بالولايتين الدانوبيتين، اللتين منحتا الاستقلال الذاتي تحت السيادة العثمانية، كما وعدت روسيا بعدم السعي لإقامة "علاقات مميزة" مع الجبل الأسود". إضافة الى ذلك، أقرّت معاهدة باريس تحييد البحر الأسود، أي تحييده وجعله مفتوحاً امام الملاحة الدولية، أي التوقف عن كونه "بحيرة روسية".

كما هو معروف فقد اعتمدت روسيا بعد معاهدة أدرنة عام 1829 سياسة ترى ان الإبقاء على الدولة العثمانية ضعيفة مهددة بثورات شعوبها هو أفضل لها من القضاء عليها (حل المسألة الشرقية) وقيام الدول الكبرى بالإستيلاء على ممتلكاتها، مما يضر بمصالحها القومية. في اعقاب الإنزال الروسي في البوسفور برضى السلطان، جسدت برأينا استراتيجية روسيا (المؤقتة) الهادفة الى إبقاء السلطنة العثمانية جارة ضعيفة على قيد الحياة، بدلاً من رؤية محمد علي يتربع على القسطنطينية والممرات، وذلك بانتظار التحضير لوفاق دولي يمهد لتقاسم ممتلكاتها. وفي إطار هذه التحضيرات جاءت اتفاقيتها مع النمسا في "ميونيخ غراتز" ايلول 1833) لتجزئة الدولة العثمانية في المستقبل، ومع بريطانيا اثناء زيارة القيصر نيقولا الى لندن عام 1844، حين عوض على الانكليز تقسيم ممتلكات "الرجل المريض على البوسفور" استناداً الى المذكرة التي كان وزيره نسلرود قد عرضها على الحكومة البريطانية سابقاً. وقد تمخض عن زيارة قيصر روسيا الى بريطانيا اتفاق الارثوذكس السوريين وامكانية انشاء مؤسسات تعليمية لهم. وللتعبير عن دعمها للعرب الارثوذكس في سوريا اثناء الحرب الطائفية – الاجتماعية عام 1860، أرسلت روسيا سفنها الحربية الى بيروت، وحاولت دون نجاح انشاء قائمقامية ارثوذكسية ثالثة الى جانب القائمقاميتين المارونية والدرزية المقترحيتن في جبل لبنان. واثناء النصف الأول من ذلك القرن وصل نفوذ روسيا الى اديرة جبل آثوس في شمال اليونان الى ذروته، حيث بلغ عدد الرهبان الروس على الجبل المذكور 10000 الفاً من اصل 13000 الفاً من مجمل سكان هذا المجمع الديني.

وعلى الصعيد الرسمي الدولي، لم تتوان روسيا عن تأكيد حقوقها في حماية الارثوذكس في الدولة العثمانية. فخلال مؤتمر فيينا عام 1815، أعلن قيصر روسيا صراحة أنه الحامي الطبيعي للأرثوذكس في الدولة العثمانية وان العوامل الدينية تفرض عليه الدفاع عن الصرب الثائرة ضد السلطان.

باندلاع النزاع بين روسيا وفرنسا في بداية الخمسينات من القرن التاسع عشر حول حقوق كل من رجال الدين اليونان ورجال الدين اللاتين في الأماكن المقدسة في فلسطين، تكون مسألة تسييس الجامعة الارثوذكسيية قد وصلت الى ذروتها. وقد حاولت روسيا ان تستغل النزاع بينها وبين فرنسا حول حقوق كل من الطائفتين المذكورتين في الأماكن المقدسة لتفرض على السلطان معاهدة يخضع بموجبها البطريرك اليوناني في الآستانة الى قيصر روسيا مباشرة، الذي يتمتع بحق تعيين وعزل أساقفة الكنيسة اليونانية. كذلك، بأن ترفع اليه كل شكاوى الكنيسة اليونانية بصفته المرجع الأعلى لها.

وعلى الرغم من تنافسهما في الشرق الادنى، فقد توافقت مصالح بريطانيا وفرنسا معاً في عدم تمكين روسيا من ان تستولي على "بوابات منزلها" (البوسفور والدردنيل). وبالنسبة للنمسا، فقد كانت التناقضات بينها وبين روسيا تدور حول الهيمنة التجارية في نهر الدانوب ومصبه وهو ما جعلها تنضم الى تحالف القرم، خصوصاً بعد احتلال روسيا للولايتين الدانوبيتين (تموز 1853). وهكذا كان وجود الدولة العثمانية "مستقلة" غير مهددة هو ضمان لتجارة الدول الثلاث ومصالحها الاستراتيجية، وكان القضاء على استقلال تلك الدولة تبعاً للمخططات الروسية يعني القضاء على شريك تجاري مريح لها.

**الثورة البولشفية: تبدل مجرى الحرب العالمية الاولى**

إن الدافع الأساسي وراء دخول روسيا الحرب العالمية الاولى الى جانب الحلفاء، كان العداء التاريخي المستحكم بينها وبين تركيا، ورغبتها في احتلال مضيقي البوسفور والدردنيل. وقد بيّنت الوثائق التي كشفتها صحيفة أزفستيا السوفياتية في 24/10/1917. وأكّدت ان روسيا القيصرية كانت شريكة في الاتفاقات السريّة التي جرت بين وزيري خارجية بريطانيا وفرنسا (سايكس بيكو) الشهيرة، حول تقسيم الشرق الأدنى، على ان يكون لروسيا شمال الأناضول والنفوذ في الأماكن المقدسة في فلسطين، وكذلك في افغانستان.

كان لثورة اكتوبر في روسيا تداعيات كبيرة على مجرى الحرب العالمية الاولى، وعلى نتائجها وما أعقبها، وبدلت كثيراً في سير الأحداث، ومسار العلاقات الدولية في حينها، وأهم هذه التأثيرات:

1. التعجيل في اقدام الولايات المتحدة الاميركية على مساندة بريطانيا وفرنسا، خوفاً من انتصار المانيا، وكذلك من تعميم تجربة الثورة الشيوعية، على البلدان الرأسمالية.
2. زيادة التضامن بين دول الحلفاء، خوفاً من الهزيمة.
3. أعلنت الحكومة البلشفية إلغاء الدبلوماسية السرية في العلاقات الدولية، وطالبت بأن تكون المفاوضات علنية يطلع عليها الشعب. وبالفعل فقد عملت الخارجية الروسية على نشر الكثير من المحاضر السرية للإتصالات والاتفاقات التي كانت تجري، واحدثت دوياً هائلاً، ومنها وعد آرثر بلفور (وزير خارجية بريطانيا) للورد روتشيلد (أحد زعماء اليهود من أصل روسي) بالمساعدة على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكذلك نشر مراسلات سايكس-بيكو.
4. أدت الثورة الى تغييرات في منطقة الشرق الأوسط، لا سيما تغيير موقف العرب من مسألة مساندتهم للحلفاء، بعد انكشاف أمر الاتفاقات السرية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا لتقسيم المنطقة، في الوقت الذي كانت بريطانيا قد وعدت الشريف حسين بمساندته في انشاء دولة عربية مستقلة عن الاتراك. فقد بدل هذا الاخير موقفه وعقد معاهدة عربية-تركية مع والي سوريا العثماني جمال باشا، موجهة ضد البريطانيين والفرنسيين.
5. في المقابل فإن الحرب ساعدت البلشيف في النجاح بتأسيس أول دولة اشتراكية في التاريخ، لم يكن انشاؤها ممكناً لولا تداعيات الحرب وانشغالات الدول الرأسمالية فيها.

**إعادة الحيوية لدور روسيا في الشرق الأوسط**

استدار بوتين نحو حلفاء الأمس في الشرق الأوسط، مستعيداً احياء بعض الاتفاقيات الموقعة معهم منذ أيام الاتحاد السوفياتي، والشراكة مع بعض دوله، بالرغم من عدم الرضى عن مستوى التبادلات التجارية فيما بين روسيا وكل من العراق وسوريا وليبيا ومصر واليمن، حيث تراجعت بشكل كبير جداً منذ عام 1989 حتى العام 2000.

وتوسعت حركة بوتين لتشمل دولاً شرق اوسطية لم تكن في نادي اصدقاء روسيا في الماضي، ومنها دول الخليج العربي، وكذلك اسرائيل. ورغم كل هذه الجهود، لم يصل مستوى التبادل التجاري الى الحد الذي كان يأمله بوتين. وبقي حجم التأثيرات الاقتصادية الروسية في أسواق المنطقة أقل بكثير من حجم تأثيرها على المستوى السياسي، وذلك لكون روسيا منافساً أساسياً للولايات المتحدة الاميركية في سوق السلاح، وألد اصدقائها مشاكسة في الملفات السياسية والأمنية الساخنة. ولعل قرار بوتين بإعادة الرحلات الجوية المباشرة بين موسكو وبغداد في ايلول عام 2000 كان من أبرز التحديات للدور الأميركي، برغم الحصار الذي كان مفروضاً على العراق.

ولأن النظرة الروسية الى الشرق الأوسط، كمنطقة جارة على الحدود الجنوبية زادت العلاقات معها بفعل التطورات الأمنية والعسكرية المتفاقمة، لا سيما إبان الحرب على العراق، والتدخلات في افغانستان، وجورجيا، فقد استخدم الرئيس بوتين الأوراق التي تملكها روسيا في إعادة احياء دورها في الشرق الأوسط وخاصة في المجالات التجارية، وسوق السلاح.

**الاحداث السورية تتحوّل الى صراع دولي بإمتياز:**

بعد استخدام روسيا، ومعها الصين لحق النقض "الفيتو" في مجلس الأمن ضد قرارين يتعلقان بالأوضاع في سوريا، ويتضمنان شيء من التدخل لإنقاذ المدنيين السوريين، ودعوة الرئيس الأسد الى ترك السلطة، وذلك في 14/10/2011 و 4/2/2012، بدأت تتكشّف جدية الصراع الدولي حول سوريا، فتكوّن شكل من أِشكال الانقسام بين الدول الكبرى التي تختلف في تقييمها لما يجري.

وقد زاد من صورة الانقسام الدولي حول ما يجري في سوريا تباعد الدول الاقليمية المؤثرة حول الملف ذاته في ذات الوقت. فدخلت تركيا والمملكة العربية السعودية ومعها دول الخليج العربي ومصر وليبيا بقوة في مساندة الثوار المعارضين، بينما توضح شيء فشيء استماتة ايران في دعمها للنظام، ومعها الجزء الأكبر من الحكومة العراقية، وكذلك قوى أساسية في لبنان، ومنها حزب الله، الذي أنخرط في القتال الى جانب قوات الأسد.

أما المسألة الأخرى التي لا يمكن إغفال تأثيرها ايضاً على الموقف الروسي، فهي المصالح المالية، موضوع العقود التجارية. فسوريا سوق اساسي لصادرات الاسلحة الروسية، وشريك اقتصادي لا بأس به، لا سيما في المشاريع الاستثمارية حيث للشركات الروسية عقود واسعة لإنشاء المصانع والبنى التحتية في سوريا، وايران تسدد جزء من المستحقات السورية للخزينة الروسية، كما تم الاعلان عن ذلك من قبل. والموقف الروسي اتجاه سوريا ربما كان وراء العقود التي وقعها رئيس الوزراء العراقي نور المالكي في موسكو، ومنها صفقة اسلحة بقيمة 4,2 مليار دولار (منوه عنها سابقا)، لكون تعاطف المالكي مع ايران والنظام السوري اصبح جلياً، خصوصاً بعد التعاون الذي حصل بين بعض الاكراد والحكومة التركية في شمال العراق.

ودعوة موسكو الى عقد مؤتمر دولي (بحضور ايران) لحل الأزمة السورية ترسم حجم تأثير هذه الازمة على سياق الصراع الدولي، وتربط مجرياتها مع مندرجات الملفات العالمية المختلف عليها، سواء كان الملف النووي ايراني، أو أزمة الشرق الأوسط، أو موضوع احجام الدول الكبرى على الخارطة الدولية، أو في الصراع الحاد الجاري في آسيا الوسطى، بين الولايات المتحدة الاميركية (التي تشجع دول تلك المنطقة على التمرّد على موسكو) وروسيا التي يهمها الى أبعد الحدود المحافظة على المحيط الجيوبولوتيكي القريب منها، والذي تعتبره مدى حيوياً لها لا يمكن التفريط به.

وتأكيد موسكو على الحوار لحل الأزمة السورية، وعدم موافقتها بأي ثمن على سقوط الأسد عسكرياً من دون التفاوض معها، يبرز خفايا السياسة الروسية في استثمار الملف السوري في سياق صراعها مع الغرب.